كتب

تفنّد الكاتبة الأميركية روبين ديانجلو الأُسس التي قامت عليها بنية النظام الأميركي والغربي، حيث تمت إبادة السكان الأصليين، ومراكمة ثروات هائلة باستعباد السود وحرمانهم من حقوقهم؛ كل ذلك على أساس استحقاق الإنسان الأبيض وبقائه في أعلى الهرم العرقي

هشاشة بيضاء تفكيك العنصرية البنيوية في الغرب

علاقات القوى في سلسلة الهرم العرقي

علي عاشور

صدرت الطبعة الأولى من كتاب «هشاشة بيضاء: صعوبة أن يتحدّث البيض عن العنصرية» للكاتبة الأميركية روبين ديانجلو عام 2018، في مشروع مكمّل ومفصّل لمقالة كتبتها عام 2011، حيث قدّمت المؤلّفة للمرّة الأولى مصطلح «الهشاشة البيضاء». ومع انفجار مظاهرات حركة «حياة السود تهم» عام 2020، في الولايات المتحدة الأميركية، بعد مقتل جورج فلويد، تصدّر الكتاب قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، وأصبح من مرجعيات ما يسمّى حرب الثقافة بين المحافظين الجُدد واليمين المتطرف من جهة، ومناهضي العنصرية واليسار الليبرالي من جهة أخرى، وعلى رأسهم أفراد حركة «اليقظة».

ترتكز أطروحة الكتاب (صدرت ترجمته العربية عن منشورات «تكوين» عام 2023 بترجمة نوال العلي) على السؤال التالي: لماذا يصعب على البيض التحدّث عن العرق والعنصرية؟ تجيب الكاتبة عن سؤالها بالقول: «إن الهشاشة البيضاء هي مفكّكة البنى العنصرية في المجتمع الأميركي». ربّما هذا ما دفع الناقد الأميركي مايكل إيريك دايسون في مقدّمته للكتاب إلى القول أنّ ديانجلو «تجبرنا على رؤية أنّ السياسات الأميركية كلّها قامت على الهويات، وأن هذه الهويات هي سمات حاسمة في الصراع مع الكيفية التي أخطأنا فيها الأمور، وهو ما يعني في كثير من الأحيان جعلها بيضاء».

يعالج الكتاب منذ بدايته تناقض الأُسس التي قامت عليها الولايات المتحدة الأميركية، فرغم أن مبدأ المساواة ما بين الناس هو ركيزة هذا التأسيس، فإنّ بنية النظام الأميركي الثقافية والاقتصادية قامت على قاعدة إبادة السكان الأصليين وسلب أراضيهم، ومراكمة ثروات هائلة باستعباد السود وحرمانهم من أبسط حقوقهم بما هم بشر. وعند وضع كل هذا في سياق تاريخي – علائقي من جانب وتراكمي من جانب آخر، نجد أن المنظومة المؤسّساتية الأميركية قامت على سياسات الهويات، والفصل فيما بينها على أساس استحقاق الإنسان الأبيض وبقائه في أعلى الهرم العرقي. تشير ديانجلو إلى استناد الآباء المؤسّسين من أمثال توماس جيفرسون؛ الذي كان يمتلك مئات العبيد، إلى العلم لتبرير أنماط الهيمنة والخضوع، ودحر التناقض ما بين ممارسات المستعمرين البيض الوحشية، والمثل العليا التي يدّعونها. فكان لعلم الأعراق نصيبه في تأسيس المعايير الثقافية والأحكام القانونية التي شرّعت العنصرية في الولايات المتحدة. وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنّ ما يُسمَّى علم الأعراق هو علم زائف ابتدعه الأوروبيون لإحكام سيطرتهم وتبرير استعمارهم للعالم. إذاً، في البدء كان الاستغلال أولاً، ثم تبعته أيديولوجيا الأعراق غير المتكافئة لتبرير هذا الاستغلال. وتحاجج ديانجلو بأنّ عدم تسمية المجموعات التي تواجه العقبات يخدم أولئك الذين يملكون القدرة فحسب، والقدرة التي تتمتع بها المجموعة المسيطرة هي قدرة كليّة. وفي هذا الإطار تذكر مثال النساء البيض اللواتي حصلن على حق الاقتراع عام 1920، حيث منح الرجل الأبيض لهن هذا الحق. كما أنّ الرجل الأبيض هو الذي من منح السود حقوقهم المدنيّة واعترف بهم بشرا متساوين في ستينيات القرن الماضي. وتشرح الكاتبة أنّ آلية المنح هذه تُثبت تراتبية القوى الاجتماعية العرقية والجنّدرية، وبالتالي تراتبيّة الهويّات ضمن علاقات هذه القوى وتصادماتها. فمنح السود حقوقهم المدنية، مثلاً، لا يُلغي الامتيازات التي يتمتع بها البيض، ولا يلغي العنصرية اتجاههم، ذلك أنّ القوانين والمؤسّسات والنظم الاقتصادية بُنيت على أساس تفوّق البيض وتهميش الفئات الأخرى. وبالتالي فإنّ تنامي هذه الامتيازات وتجذّرها في النظام عملية مستمرة تشكّل واقع المجتمع الآني بناءً على السياق التاريخي الذي نشأت من خلاله العلاقات الاجتماعية العرقية.

وتتوغل الكاتبة في مفهوم العرق وتعرّفه على أساس أنّه «فكرة اجتماعية متطوّرة ابتُكرت لإضفاء شرعية على اللا مساواة العرقية وحماية امتيازات البيض، كما تشير المؤلّفة إلى أهمية التفريق ما بين التمييز والتحامل والعنصرية. فالتحامل هو حكم مُسبّق على الآخرين بناء على الفئة الاجتماعية التي ينتمون إليها. أمّا التمييز فهو الفعل القائم على هذا التحامل، أو التصوّر المسبّق. وعندما يكون التحامل فعلاً جماعياً لمجموعة عرقية تُسيطر على القانون وتتحكّم بالمؤسّسات وتستحوذ على وسائل الإنتاج، يتحوّل إلى عنصرية. العنصرية، تبعاً للكاتبة، هي بنية، وليست حادثة أو فعل لحظي نابع من التحامل.

وبعد هذا كله، تنتقل الكاتبة إلى معالجة علاقة القوى بين البيض والملونين، حيث ترى «أن اتجاه القوة بينهم هو اتجاه تاريخي وتقليدي جرى تطبيعه في الأيديولوجيا». هكذا يصبح البياض مكانة اجتماعية لها مكتسباتها وامتيازاتها القانونية والاقتصادية، وهو ما يتعارض مع مفهومي الفردانية والجدارة اللذين يقومان على أساس أنّ النجاح والفشل ليسا نتيجة الهياكل والبنى الاجتماعية، بل نتاج الفرد وتخلّفه عن العمل لتطوير ذاته وتغيير واقعه. هكذا لا يكون للعرق علاقة بنجاح الأشخاص وفشلهم. ولكن بما أن قوانين الفصل العنصري ألغيت وصار الجميع متساوين قانونياً، فإنه لا يجوز اتهام النظام المؤسّساتي والمجتمع بالعنصرية، كما لا يصح اتهام البيض بسيطرتهم على الامتيازات والمكتسبات الاقتصادية والسياسية. هنا تحديداً تصل الكاتبة إلى ما تسميه تعبير «الهشاشة البيضاء».

وتعرّف الكاتبة الهشاشة البيضاء بأنها عبارة عن «استجابات في إعادة التوازن الأبيض من حيث إنها تصدّ التحدي وتعيد راحتنا العرقية وتحافظ على هيمنتنا داخل التسلسل الهرمي العرقي»، أي بتعبير آخر، هي مجموعة من الآليات الدفاعية وأنماط الاستجابات التي تلغي مسؤولية البيض من مشاكل التفاوت العرقي، وتعمل على ضمان شعورهم بالأمان والاستحقاق والتفوق الذاتي على الآخرين. فـ«القول بأنّ البياض يتضمن مجموعة من الممارسات الثقافية التي لا يعترف بها البيض أنفسهم هو فهم العنصرية باعتبارها شبكة من المعايير والأفعال التي تخلق باستمرار فرصاً وامتيازاً للبيض وحرماناً لذوي البشرة الملونة».

وتستشهد المؤلفة بالكاتب تشارلز دبليو ميلز، صاحب كتاب «العقد العرقي»، حيث يذكر أنّ التفوّق الأبيض هو «النظام السياسي غير المُسمّى الذي جعل العالَم الحديث على ما هو عليه اليوم»، في إشارة إلى أنّ الاستثناء العنصري هو القاعدة، بينما تتحوّل المساواة في عالم اليوم إلى استثناء. وبعد هذا كله، تفنّد ديانجلو الفكرة القائمة على أنّ العنصريين هم الأشخاص السيئون فقط، أو أنّ العنصرية هي فعل مباشر ضدّ فئة اجتماعية معيّنة. فبنية النظام الأميركي عنصرية وإقصائية، وإن اختلفت الخطابات واتّخذت أشكالاً ناعمة. وهذا ما يثير حفيظة البيض الذين تبوّؤوا مكانتهم في العالم بإلغائهم وقمعهم للآخرين، فهم يصرّون على أنّ العنصري هو الفرد السيئ فقط، وبما أنّهم أشخاصٌ جيدون، فإن اتهامهم بالعنصرية هو تجنٍ عليهم، وفعل عنصري من الآخرين تجاههم. أمّا فيما يخصّ ادعاءات عدم رؤية الفوارق العرقية لمن يصنفون أنفسهم بالتقدّميين، فتقول ديانجلو إنها آلية تملّص بيضاء من المسؤولية الاجتماعية، وإنكار لواقع معاناة الفئات الأخرى، خصوصاً السود. وتنطلق الكاتبة من تجربتها الشخصية، حيث تعترف بأنها نالت بعض الامتيازات التي أثّرت على حياتها وعلى حياة الآخرين، كونها امرأة بيضاء، لافتةً الانتباه إلى أن المجتمعات البيضاء تعتبر أن رزمة الامتيازات والاستحقاقات الاجتماعية والاقتصادية حقٌ فطري لها: فـ«هشاشتهم البيضاء أساسها الدفاع عن هذه الرزمة وكأنها نتاج طبيعي، لا علاقة لها بالسياق التاريخي الذي أوجدها».

وعلى الرغم من أن الكتاب محاولة لتفكيك الواقع العنصري المسكوت عنه في أميركا والغرب، إضافة إلى أنه يدعو إلى إقامة حوار حول العنصرية البنيوية التي تحدد حياة مئات الملايين من البشر، فإن الكاتبة لم تسلم من الانتقادات اللاذعة من بعض الأسماء البارزة في نضالات العدالة الاجتماعية في أميركا.

(شاعر وصحافي من السعودية)

بطاقة

تعمل Robin DiAngelo أستاذةً مُلحقة في «جامعة واشنطن»، إضافة إلى عملها مستشارة في قضايا العدالة العرقية والاجتماعية منذ أكثر من عشرين عاماً. تركّز في عملها على مناقشات البُنى العنصرية في أميركا، من خلال ورشات تعليمية تهدف إلى كسر الحواجز عند البيض للاعتراف بالعنصرية، لا كوباء مُنتشر في المؤسّسات والعلاقات الاجتماعية فحسب، بل كمنظومة بنيويّة ذات سياق تاريخي وثقافي.

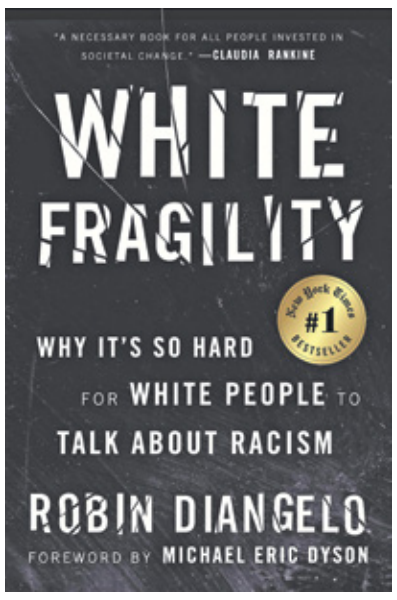

بُنيت القوانين والمؤسّسات والنّظم على أساس «تفوّق» البيض

استناد إلى علم الأعراق لتبرير أنماط الاستعمار والعنصرية

روبين ديانجلو

نظرة أولى

صدرت عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» النسخةُ العربية من «كتاب ما القرابة؟» للأنثروبولوجي الأميركي **مارشال سالينز**، بترجمة الباحث الفلسطيني عبد الله البياري. يبحث العمل في ظاهرة القرابة وفاعليتها العلائقية والنسَبيّة والعاطفية والرمزية ومكانتها في النظام الأنطولوجي للحياة، في مقاربة لمشكلة أنثروبولوجية عالقة هي «ماهية القرابة»، والتي تعني أنّ الأقارب يتشارك بعضهم جوهريّاً وجود بعض، وأنّ تشكُّل القرابة من خلال البناء الاجتماعي والإنجاب كفيلٌ بتفسير «الفاعلية الغامضة للعلائقية أو النَّسَب».

ترك المسلمون العرب عدداً هائلاً من الألفاظ في اللغة الإيطالية عامّة واللهجة الصقليَّة خاصّةً. وعلى عكس ما يتردّد في الغرب، فإن الكلمات العربية الباقية في الإيطالية دخلت عن طريق المدنيّة لا الحروب. في كتاب **لويجي رينالدي** «الكلمات الإيطالية المشتقّة من اللغة العربية»، الصادر عن «الهيئة المصرية العامّة للكتاب» بترجمة **عبد الله عبد العاطي النجار** و**عصام السيد علي**، يدرس الباحث الإيطالي التأثير اللغوي المباشر للغة العربية على نظيرتها الإيطالية، والسياق التاريخي الذي دخلت فيه، ويُقدّم أمثلة على استخداماتها الراهنة.

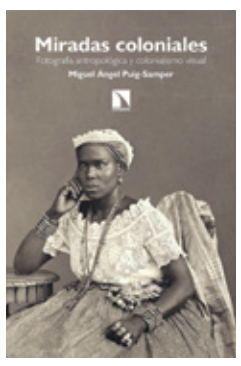

في كتابه «نظرات كولونيالية»، الصادر حديثاً عن «دار كاتاراتا»، يتناول الباحثُ الإسباني **ميغيل آنخيل سامبر** النظرة الاستعمارية الغربية من خلال مئة صورة وفيلم وثائقي تُصوّر الآخر على أنّه «همجي» ومتخلّف». تعود معظم هذه المواد البصرية إلى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ إذ مارس الأوروبيون والأميركيون الاستعمار على بلدان مختلفة، وكانت هذه النظرة ضرورية لإضفاء «شرعية» على إخضاع «الشعوب المتخلّفة والمتوحّشة» للسيطرة، والاستيلاء على أراضيها واستغلال مواردها.

ينطلق كتاب الباحث **عباس عبد الحليم عباس**، «العلاقات الأدبية والثقافية بين أمم المشرق: العرب والتُّرك والفرس والأُردو»، الصادر عن دار «خطوط» من سؤال مفاده: ما ملامح المشروع الثقافي والحضاري الإسلامي العامّ الذي يربط بين أُمم وثقافات المشرق الذي سعى الكاتب والمفكّر عبد الوهاب عزّام (1894 -1959) لتأسيسه؟ يقرأ العمل جهود عزّام حول الثقافة الإسلامية وأبعادها الحضارية فيما أنجزته الأمم الشرقية وفق مقاربة تتأمّل الرؤية النقدية الشمولية لهذا المفكّر، وتوظّف المنهجية التحليلية والمقارنة، بمختلف توجهاتها.

«لو كان العالم كلّه من الورق.. تاريخ الكتابة باللغة الهندية» عنوان كتاب للباحث **تايلر دبليو ويليامز**، صدر عن «منشورات جامعة كولومبيا». يستكشف الكتاب كيف استطاعت اللغة الهندية العاميّة التي ظهرت في منتصف القرن الرابع عشر أن تكتسب مكانةً إلى جانب اللغات الكلاسيكية، مثل السنسكريتية والفارسية، وتُصبح لغة الأدب والعلم وقادرةً على استيعاب المعارف والآداب المنقولة من لغات أُخرى، كما يدرس أرشيف اللغة الهندية قبل الاستعمار للوقوف على العلاقات بين أيديولوجيات الكتابة والممارسات الاجتماعية والثقافية والتيارات الأدبية.

صدر كتاب «عمار الشريعي: سيرة مُلهمة» للكاتب المصري **سعيد الشحات** عن «دار ريشة للنشر والتوزيع». بالاعتماد على حوارات المؤلّف ولقاءاته مع الملحّن المصري (1948 - 2012) وشهادات من أصدقائه ورفاقه، والعودة إلى عشرات الكتب والصحف واللقاءات التلفزيونية والإذاعية، يعيد المؤلّف كتابة سيرة الشريعي منذ مولده في قرية سمالوط بمحافظة المنيا، مروراً بتعليمه المدرسي والجامعي وعلاقته بعبد الرحمن الأبنودي وأحمد فؤاد نجم وسيد حجاب وآخرين، وتأسيسه «فرقة الأصدقاء بداية الثمانينيات، وأبرز أعماله الموسيقية، وصولاً إلى ثورة يناير 2011.

عن «منشورات الجمل»، يصدر هذه الأيام كتاب «نوادر الشربيني» بتحقيق **إبراهيم العاقل** وتقديمه، حيث يوضّح في مقدّمته أنّ الكتاب يستعرض مجمل النتاج الكتابي والإبداع التأليفي للأديب المصري يوسف بن محمّد بن عبد الجواد بن خضر الشربيني (ت 1686)، ويُقدّم تحقيقاً علمياً لنوادره التي خطّها بيده في أواخر القرن الحادي عشر الهجري (السابع الميلادي)، وقدّم فيها بحسّ فكاهي لاذع صورة اجتماعية وثقافية لفئات مهمّشة لطالما تحاشتها الأقلام وسكتت عنها الكتب، مُضيفاً أنّ الهدف هو إعطاء فكرة واضحة عن نصوصه وثقافة عصره.

«أرض الحرية: رحلة الصيف إلى الجزائر» عنوان كتاب صدر عن «المؤسّسة العربية للدراسات والنشر» للكاتب والصحافي الأردني **عامر طهبوب**، وفيه يوثّق رحلةً صيفية شملت شمال الجزائر وشرقها وغربها، بالجمع بين الرواية وأدب الرحلة والتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والصحافة، مثلما نقرأ في تقديم الكاتب الجزائري عبد الوهاب بن منصور، الذي يشير إلى أنّ طهبوب «لم يكتف بنقل أخبار المدن والشوارع والشواهد. وبحسّ المؤرّخ الباحث عن الحقيقة، استنطق التاريخ العريق لهذا البلد، فاستمع لسرديات الجزائري ومروياته وتاريخه الشفوي».